

الإسلام والعالم

أديت فريضة الجمعة في الكعبة : في غير موسم الحج : فجلست في المسجد : أجيل النظر في الجموع الحاشدة التي امتلأ بها صحن المسجد ، وقد ضمت صورة مصغرة للعالم الكبير ، على تراسم أنحائه وأطرافه ، وتعدد أجناسه وأصنافه : وكان معي زملاء رحلة ، رجال أشداء صناعتهم القتال ، فراعني أني رأيت الدموع تنحدر على وجناتهم ، وكأنهم أطفال ، من فرط التأثر بجو المكان ، والذكريات التي تتداعى في نفس المسلم بالجلوس فيه . أما أنا فقد رحمت أتأمل في وجوه المصلين ، الذين وفدوا من كل صوب وحذب من دنيانا ، مستمتعاً بالنظر إلى حمام الحرم ، وهو يرسم في الجو خطوطاً ودوائر ، يحيط ويشيل ، كما يحلو له ، رمزاً ناطقاً بالسلام والسكينة والحرية . فلما أذن المؤذن ، وأقبل الخطيب ، أحسست بوجيب قلبي عنيفاً ، حتى خيل إلى أنه موشك أن يقفز من مكانه . فلما وصل الخطيب إلى آخر درجات المنبر ، ثم استدار ليواجه المصلين ، بلغت الغاية من التأثر حتى أوشكت أن أنتظم في سلك الباكين ، ذلك لأنني تصورت نفسي على هذا المنبر ، أخطب العالم مجتمعاً ومثلاً في هذه الألوفا من المصلين الهادئة وجوههم ، الحاشعة قلوبهم ، متجهين إلى قبلة واحدة ، مسيرين بعقيدة واحدة ، يظلمهم تاريخ واحد . ماذا عسى أن أقول لهم ، والعالم الإسلامي في أيدي سادة العالم وأمراهه ، كالكرة يتقاذفونها بالأيدي أو بالأرجل ؟ ولكن الخطيب أسرع إلى نجدتي ، فقد وقف هادئاً ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، وأخذ في صوت رتيب ، يخطب فينا ، كأننا لم نقطع الفيافي والقفار ، راجلين أو طائرين ، لنشهد هذه الساعة ومثيلاتها ، أو كأننا في مسجد بعطفة من حارة في حي من أحياء بلدنا ،

فقد حدثنا يومذاك ، في شأن من شئون ديانا التافهة ، فرحت أحرق فيه ، وكأني لا أصدق أذني ، ولا عيني ، ثم استحالت الحرارة في بدني وقلبي ، إلى برودة ، فلما نهضت إلى الصلاة ، كنت شبحاً بلا روح .

ما حدث يومذاك هو خير بيان لحال الإسلام منذ سنوات ، التي لا أدري كم تغيرت اليوم ، لقد كان الإسلام نساً مخلقاً ، يصل إلى قمم الجبال الشوامخ ، ويطل على العالم الفسيح ككل متصل ، ثم أصبح كبط الترع ، له جناحان ، ولكن لا يرفعانه عن مستوى الماء الضحل . لقد تقلصت عالمية الإسلام ، وكونيته ، فأصبح ديناً محلياً ، وهو الدين المساوي الذي جاء رسوله ، ليخاطب الدنيا قاطبة ، مخاطب القرآن النبي بقوله : (قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) . ورب المسلمين ، هو رب المشارق والمغرب ، وهو رب العالمين ، والمخاطب في القرآن موجه للناس ، وقاعدة الإسلام الكبرى : (يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وقول الرسول : « كللكم لآدم » .

بدأ الإسلام قوة عالمية ، واستمر قوة عالمية حتى سقطت دول المسامير في يد الاستعمار . فنذ الأيام الأولى وجهت دعوة الإسلام إلى أكاسرة وقياصرة وأمراء القوى الكبرى في العالم ، وجهت إليهم من هذه القرية الصغيرة « مكة » ، فوصلت إلى حواضر الحضارة المزدهرة ، المزدهية بقوتها وجاها ، المدلة بسلاحها وسلطانها ، وبقي الإسلام قوة عالمية في صور مختلفة : تارة بما ينقله للعالم من ثقافة علماء القدماء التي أثرت في عقول البشر ، وصاغت أفهامهم وأفكارهم حتى اليوم ، وتارة بما يضيغة إلى علم الإنسانية من طرائق مستحدثة ، وتعديلات غير مسبوقه ، وكشوف لحقائق مجهولة ، وتارة نالته بما قدمه من نماذج بشرية عالية ، في دنيا الفلسفة والعلم والفقہ والإدارة وقيادة الدول والجيش . وتارة رابعة بالصراع الذي نشب بينه وبين العالم المسيحي ، وأخذ صورة

الحروب ، وصورة السياسة ، بمناورات ومحاورات ، أو بمعاهدات ومحالفات . وقد تشكل تاريخ الإنسانية بهذه الحروب العالمية ، الحروب مع إمبراطورية بيزنطة ، التي انتهت بسقوط القسطنطينية في يد المسلمين ، وبحروب أمراء الغرب ضد دولة المسلمين في الأندلس ، التي انتهت بانتصار شارل مارتل ، في بواتيه . على أن الحرب الصليبية ، التي استمرت قرنين أفادت المعسكرين ، فقد وحدت المسلمين ، وأدت إلى دنو القبائل التركية من أواسط آسيا إلى الشرق الإسلامي ، كما أتاحت للمسيحيين أن يدركوا مدى تخلفهم عن أهل الشرق ، فكانت بداية عصر النهضة عندهم ، إذ نقلوا عن المسلمين ما نقلوا .

وكان آخر مراحل حياة الإسلام العالمية ، نشوء الدولة العثمانية ، التي بدأت حياتها بدخول « عثمان باديشاه » مدينة بورصة سنة ١٣١٧ ، فقد حاول الاستعمار الغربي على مدى أربعة قرون أن يزيحها من الوجود ، فلما ضعفت ثم انهارت ، تدفق زحف الاستعمار الغربي ، على بلاد المشرق والمغرب العربي ، وبدأت الصهيونية العالمية تعربد ، وتوجه الاستعمار الغربي ، وتمتطي ظهره ، وتمده بالقوة ، وتأخذ منه العون ، حتى كانت كارثة الإنسانية الكبرى ، التي تسمى « إسرائيل » .

نجحت عوامل الضغط المختلفة ، العسكرية والسياسية والفكرية ، في التضييق على الإسلام ونخنق روحه العالمية ، فأخذ علماء ومفكروه ، وساسته وقادته ، يدخلون في مواقع المحلية ويقنعون بفتات السياسة والفكر . وتمزقت هذه الوحدة التي كانت تظل علماء الإسلام ومشرعيه وفقهاءه وأدباءه ، وآتى أعانتهم على أن يتصلوا على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى الرغم من وعثاء السفر ، وصعوبة الاتصال ، فقد كان العالم المسلم يخرج من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه بلا حواجز ولا جوازات ، لا يستوقفه أحد ، ولا يسأل إلى أين يذهب .

ولقد حدث أن اشتدت الحملة على « الدين » كفكرة ، حتى

أصبح متهمًا ، يطلب منه أن يدفع عن نفسه ، ثم ما لبث أن امتعاد
 اعتباره ، حتى عند المد خصومه ، فقد أدرك الذين يتعقبونه بالاتهام ،
 ويطاردونه بالتشهير ، أنه كان ولا يزال قوة تحرر ونضال ضد كل ما
 رسفت فيه الإنسانية من أغلال الاستبداد والاستئثار بالسلطة ، واستغلال
 الضعفاء ، وأن أكبر عيوبه في الرجال الذين ينتسبون إليه زوراً ،
 ويتجرون باسمه باطلاً ، وأن الجرائم التي ارتكبت باسمه ليست في مثل
 قبح ما ارتكب باسم العلم والفلسفة والفن . فعلى أقل القليل لم يصنع الدين
 القنبلة الذرية ، ولا الهيدروجينية ولا الصواريخ الحاملة للرؤوس النووية ،
 كما لم يصنع الأدوات والأجهزة التي هتكت أسرار الناس ، واقتحمت
 عليهم عزلتهم ، وارتفعت بالحاسوبية العالمية والعلمية إلى مرتبة القانون
 المقدس ، الذي لا يخجل من تطبيقه أحد .

ومن ناحية أخرى لم يستطع رجال الدين مهما ساء مسلكهم ،
 وخدموا القوة الظالمية ، أن ينافسوا العلماء الذين سلحوا الطغاة ، وجمعوا
 لهم المال ، ولا الأدباء والقراء والمصورين الذين باعوا أقلامهم وفنهم ،
 في سوق النفاق السياسي ، بضاعة مزجاة .

ولما كانت الأزمة الإنسانية قد بلغت ذروتها ، ولم يعد أحد قادراً
 على إنكار تعثر الإنسان ، وامتلاء طريقه بالصعاب ، وامتلاء حياته
 بالآلام ، وقصور أجهزة التدقيق والتنسيق التي أعدت للأخذ بيده ،
 وانتشاله من وهدهته ، فإن كل قوة مدعوة للإسهام في الدفاع عن مستقبل
 الإنسان ، وتحريره من القيود التي لا يتحطم منها واحد ، حتى تنبت بدله
 عشرات ، وإطلاق طاقاته ، وصيانة خير تركاته ومأثوراته ، والتقريب
 بين شعوبه وجماعاته .

ولا جدال في أن الدين النقي الخالص ، هو في مقدمة هذه القوى
 التي توجه إليها الدعوة ، ولا جدال في أن الإسلام العالمي ، أول ما تتجه
 إليه قلوب المؤمنين في سلام إنساني طويل العمر ، عادل ، مستقر ،

فلإن يده لم تلوث بما لوثت به أيدي الآخرين من دماء الشعوب التي استعمرت ، ولا الشعوب القوية التي دمرت مدنها ، وخربت بيوتها ، وقتل رجالها ويم أطفالها وترمل نساؤها .

ولكى يؤدي الإسلام دوره العالمي يجب :

أولاً : أن يؤمن المسلمون بدورهم الإنساني والعالمي ، وأن الأزمة الإنسانية الكبرى التي تمر بها في حاجة إلى روح الإسلام العالمية ، وفكره الإنساني ، وتقاليده وأساليبه في التقريب ، وقدرته على التنسيق .

ثانياً : أن يزدادوا علماً بثقافتهم وعلومهم ، وأن ينفضوا عنها الغبار ، ويقربوها للأطفال والشبان ، وينشروها في ملخصات ويعلقوا على المطولات ، ويشرحوها ، ويفهرسوها ، ويوبوها ، ويقارنوا بينها وبين ما وصل إليه العلم الحديث .

ثالثاً : أن يعيدوا النظر في برامج التطوير التي أدخلت على الجامعات الإسلامية ، على أن يكون أساس هذا التطوير ، طالب الجامعة الإسلامية ، الذي حصل العلم الإسلامي من تفسير وحديث وفقه ولغة منذ مطلع حياته الدراسية ، مقرونة بالعلوم الحديثة من رياضة وعلوم وآداب ، فإذا دخل هذا الطالب الجامعة الإسلامية الكبرى ، والتحق بكلياتها التي تلقن العلم الحديث من طب وقانون وهندسة وصيدلة ، تخرج فيها طبيباً أو مهندساً متميزاً عن زملائه الذين أتموا علمهم في الكليات العلمانية البحتة وأفادت منه الإنسانية بوصفه عنصراً جديداً .

رابعاً : يجب بذل جهد خاص ودعوب ومثابرة لجعل اللغة العربية اللغة الثانية في جميع بلاد المسلمين التي لا تتكلم العربية .

خامساً : إعداد ما يلزم للشعوب الإفريقية والآسيوية من معلمين وكتب في مادتي الدين واللغة ، سهلة ، مبسطة ، جميلة الطبع ، حسنة التنسيق .

سادساً : يجب إعادة النظر في مادة ومنهج التربية الدينية في مدارس الدول الإسلامية ، وجعلها أرحب أفقاً ، وأيسر تناولاً ، وأكثر اتصالاً بشئون الدنيا .

سابعاً : يجب أن يصل علماء المسلمين أمتهم بمشكلات الدول الإسلامية ومشكلات العالم بأسره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن يكون لهم رأى فيها .

ولعل هذا بعض ما يجب على الإسلام بحكم كونه عقيدة عالمية .